السبت 20 يوليو/ تموز 2024 م 14 محرّم 1446 هـ ◻ العدد 3610 السنة العاشرة
Saturday 20 July 2024
العربي الجديد

هوامش

لا تزال فئة المهمشين في اليمن تواجه التمييز والعنصرية وغياب الحقوق على الرغم من محاولات دمجهم في المجتمع خلال السنوات الأخيرة، إلا أن الطريق لا يزال طويلاً لأسباب عدة

أطفال «الأخدام» في اليمن (عامر الصبري)

مهمّشو اليمن

فئة اجتماعية تعاني التمييز والعنصرية

تعز ـ **فخر العزب**

قرّر اليمني نعمان الحذيفي أن يحمل على عاتقه مسؤولية الدفاع عن حقوق فئة المهمشين أو ما يعرف لدى العامة باسم «الأخدام» كونه أحد أبنائها، قاطعاً العهد بانتزاع حقوقها المسلوبة بفعل عادات وتقاليد متوارثة. نشط في مجال الحقوق والحريات، وتركزت جهوده في الدفاع عن حقوق فئة المهمشين. وفي مؤتمر الحوار الوطني الذي عقد في اليمن عام 2013 بمشاركة 565 عضواً، كان الحذيفي عضواً في مؤتمر الحوار ممثلاً لفئة المهمشين عن منظمات المجتمع المدني. وفئة المهمشين في البلاد تضم ذوي البشرة السوداء، وتعد الفئة الاجتماعية الأدنى في السلم الاجتماعي، وتتعرض لتمييز سلبي وعنصرية، وتعاني الحرمان من كافة الحقوق المدنية والسياسية. والمهمّشون هم الطبقة الأدنى في المجتمع اليمني، ويسكنون في عشوائيات ومخيمات من الصفيح غالباً في أطراف المدن، وفي تجمعات تسمى «المحوى» وتفتقر إلى أدنى الخدمات. ويواجه المهمشون سلوكاً عنصرياً من المجتمع، ويمنع تناول الطعام معهم أو الزواج منهم أو تزويجهم باعتبار الأمر عيباً اجتماعياً.

مهن دونية

ويبلغ عدد المهمشين في اليمن ثلاثة ملايين نسمة وفقاً لإحصائيات الاتحاد الوطني للمهمشين والأمم المتحدة، أي أنهم يمثلون ما نسبته 12% من إجمالي سكان اليمن، وتتوزع نسبة كبيرة منهم في المحافظات الواقعة على طول الخط الساحلي للبحر الأحمر الحديدة وحجة وتعز، وفي محافظات المحويت وذمار وإب، وفي المحافظات الجنوبية عدن ولحج وأبين وحضرموت الساحل.

وتحصر الأعراف في المجتمع اليمني عمل المهمشين في مهن محددة تعد دونية ومحتقرة. فقد تراهم عمال نظافة، أو يتولون إصلاح الصرف الصحي، وتصليح الأحذية، وقرع الطبول في الأعراس والمناسبات الاجتماعية، فيما يلجأ عدد كبير منهم، وخصوصاً النساء، إلى التسول. ويقول أحد أبناء فئة المهمشين، ويدعى موسى إدريس، لـ«العربي الجديد»: «أعيش في المحوى وسط تعز في بيت من الصفيح مع ثلاث زوجات وسبعة أطفال، وأعمل في تصليح الأحذية كونها المهنة الوحيدة المتاحة لي للعمل كمهمش. لم أنل حظي من التعليم على اعتبار أن المهمشين لا يدخلون المدارس، وأكتفي بهذا العمل وأجني يومياً حوالي خمسة آلاف ريال (الدولار يساوي 1850 ريالاً)، وأعيش على أحصل عليه».

فقر وأمية

وتكشف دراسة مسحية لمجتمع المهمشين في اليمن، أعدّتها منظمة الأمم المتحدة للطفولة (يونيسف)، وشملت 9200 أسرة (51406 أشخاص)، عن ارتفاع مستويات الفقر مع انخفاض الإلمام بالقراءة والكتابة والالتحاق بالمدارس، وتشير إلى أن الظروف المعيشية للأسرة سيئة للغاية، وتواجه صعوبة في الحصول على الخدمات الاجتماعية الأساسية. وتبيّن الدراسة أن واحداً فقط من كل خمسة أشخاص ممن بلغت أعمارهم 15 عاماً وأكثر يستطيعون القراءة أو الكتابة، ولا يتم تسجيل سوى طفلين من كل أربعة أطفال تراوح أعمارهم ما بين ستة أعوام و17 عاماً في المدرسة، كما أن تسجيل المواليد منخفض ويبلغ 9% فقط.

من جهته، يقول الباحث الاجتماعي عارف الشميري، لـ«العربي الجديد»: «لا توجد نصوص قانونية تمارس التمييز ضد فئة المهمشين، لكن قضية التمييز تأخذ بعداً اجتماعياً نتيجة لتراكمات في العادات الاجتماعية التي عزلت أبناء هذه الفئة وحصرتها في مهن محتقرة اجتماعية. كما أن المهمشين أنفسهم يتحملون جزءاً من المسؤولية نتيجة استسلامهم لهذا الواقع وعدم الانخراط في المجتمع»، ويشير إلى «وجود تفاوت في مستوى العنصرية الممارسة ضد المهمشين، ويرتبط ذلك بوعي المجتمع. نُلاحظ بدء دمج المهمشين في المجتمع في محافظة عدن، حيث يتلقون التعليم ويتولون وظائف حكومية وإدارية. لذلك، تقع المسؤولية على عاتق الدولة ومنظمات المجتمع المدني في وضع خطط استراتيجية لدمج المهمشين في المجتمع».

دمج المهمشين

وبعد ثورة 11 فبراير/ شباط الشبابية الشعبية، بدأ التحرك لدمج المهمشين في المجتمع في إطار الدولة المدنية المنشودة. في هذا السياق، تضمنت مخرجات مؤتمر الحوار الوطني توصيات عدة لتعزيز وضع المهمشين واندماجهم في المجتمع اليمني. وأوصى المؤتمر بضرورة سن التشريعات اللازمة لضمان الإدماج الكلي للمهمشين وتمتعهم بجميع حقوقهم تبعاً للدستور. كما طالب المؤتمر بتشريع يضمن تحقيق العدالة الاجتماعية للمهمشين والفرص المتكافئة، وتوفير دعم معنوي ومالي ولوجستي لتمكينهم من المشاركة في عملية التنمية.

إلى ذلك، يقول رئيس الاتحاد الوطني للمهمشين نعمان الحذيفي، لـ«العربي الجديد»، إن «مشكلة المهمشين في اليمن كانت في الأساس سياسية كونها نتاج صراع سياسي على السلطة خلال فترة صراعات دويلات اليمن القديم، وأقصد هنا صراع الدولة النجاحية مع الدولة الصليحية، وصراع النجاحيين مع الدولة المهدية المدعومة من الإمامة الزيدية في مناطق الشمال اليمني بما يسمى المكون الزيدي، وانتهى هذا الصراع بسقوط الدولة النجاحية لصالح الدولة المهدية، وتحول في عهدها رعايا الدولة النجاحية لما يشبه أسرى حرب وأطلقت عليهم كلمة أخدام بمرسوم ملكي أصدره الأمير علي بن مهدي الرعيني الحميري في عام 553 هجرية. وهكذا تحول هذا القرار إلى عرف ومشكلة اجتماعية في اليمن».

يضيف الحذيفي أن «حالة التهميش والتمييز التي يتعرض لها المهمشون اليمنيون من ذوي البشرة السوداء تكمن في فشل الأنظمة السياسية التي حكمت اليمن في ترسيخ دولة المواطنة المتساوية والعادلة وفي طبيعة التركيبة الاجتماعية والقبلية للمجتمع اليمني ونظرته الدنيوية للفئات الضعيفة والمستضعفة، ناهيك عن استسلام السود اليمنيين للواقع الذي هم عليه وعدم تمردهم، والاكتفاء في العيش على هامش الحياة العامة والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في اليمن».

باختصار

يبلغ عدد المهمشين في اليمن ثلاثة ملايين نسمة وفقاً لإحصائيات الاتحاد الوطني للمهمشين والأمم المتحدة، أي أنهم يمثلون ما نسبته 12% من إجمالي السكان

■■■

حالة التهميش والتمييز التي يتعرض لها المهمشون اليمنيون من ذوي البشرة السوداء تكمن في فشل الأنظمة السياسية في ترسيخ دولة المواطنة وفي طبيعة التركيبة الاجتماعية والقبلية للمجتمع

وأخيراً

البذاءة الغائبة في «هُواريّة»

معن البياري

باحتراسٍ شديد، وحذرٍ أشدّ، عبرتُ إلى قراءة رواية الجزائرية إنعام بيّوض «هُواريّة» (دار ميم، الجزائر، 2023)، فلا أتورّط في حماسٍ في الدفاع عن حرّية التعبير، بشأن روايةٍ ضعيفة القيمة الفنية والجمالية. وتسلّحت بشيءٍ من «المحافظة»، وأنا الذي لا أستمزج الروايات، العربية والأجنبية، التي يُسرِف السردُ فيها بالتعبيرات والإيحاءات والمشاهد الجنسيّة، وتكون على مقادير ظاهرةٍ من المجّانيّة والقصدية. وقد ظننتُ (وسوءُ الظنّ من حسن الفطن)، بعد الهجمة (المستمرّة) في الجزائر ضد هذه الرواية، أنها ربّما «تضجّ» بأمرٍ كهذا، وعندها سأجهر بموقفٍ منها. وتحرّرتُ من «الامتثال» لذائقة المحكّمين في جائزة آسيا جبار (نافست 86 روايةً عليها)، وقد كرّموا «هُواريّة» بها، وهذا ما أصنُعه في العادة، فلي ما أراه ولغيري ما يرؤن. وقد انتبَه أصحاب الغضبة المشهودة من الكاتبة وروايتها ودار النشر والجائزة إلى «فداحة» ما ارتكبه المحكّمون الذين أعلوا من شأن روايةٍ، تخدِش الحياءَ العامّ بما فيها من مفرداتٍ مبتذلةٍ ونابية، على ما استرسلوا في حملةٍ نشطةٍ واسعة، وصلت إلى البرلمان، ضد الرواية، فاضطرّت الدار التي نشرتْها إلى انسحابِها من النشر، وترك الجمل بما حمل، على ما أعلنت حرفياً. هل أقول إن ما صدمني أنني لم أفلح في العثور على الابتذال أو البذاءة في مفرداتٍ نابيةٍ في الرواية، أم أسأل أصحاب الهجمة المشدّدة: أين هي السطور، بالضبط، التي أغضبتهم؟ هذا حقيقيٌّ، ذلك أنها سطور معدودة جداً، جاء فيها الكلام على ما صنَعه رجلٌ مع زوجته التي أرادها أن تعمل عاهرَة. وفي الوُسع أن يقال، هنا، إن نجاح أنعام بيّوض في روايتها، موضوعة هذا التعليق المتعجّل، هو في أن الابتذال الذي تسلكُه نساءٌ في الرواية، ومنهن التي تحمل اسم هذا العمل، هُواريّة، لم يأخذ السردَ والحكي، تماماً، إلى ابتذال لغتهن ومفرداتهن ومخاطباتهن. ببساطة، لأن الرواية معنيّةٌ بتشخيص الأنوثة المحطّمة، المُتعبة بالخيبات، وبالفقد والخُسران، بالبحث عن طمأنينةٍ في العيش مفقودة، بسكينةٍ غائبة، بحبٍّ يُشاهد في أفلام التلفزيون، ومُشتهى في فضاء مثقلٍ بالخيانة والجهل والخوف والتيه والكذب والزيف، وحيث انتهاك المرأة في ممارسة الدّعارة، وفي متاهة السعي الصعب إلى أمنٍ وأمان، إلى حنانٍ وكرامة. ... هذه هي أولى مشاغلِ روايةٍ ضجّت بحكاياتٍ موصولة بعضها ببعض بخيوطٍ من السرد، نسجت منها أنعام بيّوض متناً واحداً، تلتم فيه تنويعاتٌ من أمزجةٍ تتصادم وتتقاطع، تروي وتقول، يتصادى الكلام منها بعضه مع بعض، وذلك كله صنعته الكاتبة باقتدار العارفة بالتجريب الروائي، عندما تترُك الرواة ينطقون ويتكلمون، عن أنفسهم وعن بعضهم، وكأنها منحتهم سلطة أن يكونوا كما هم، وأهل الحكايات وروايتها، وليس الكاتبة، لأنهم أعلم منها بجوانيّاتهم، بخيباتِهم، بخرائط العميق فيهم. وعلى ما في بعض هذا الحكي من لغةٍ عالية، أحياناً قليلة، وهو ما قد «تؤاخَذ» عليه الكاتبة، فإن العاميّة الجزائرية، شديدة الصعوبة على أفهامنا نحن القرّاء المشارقة (جيّدٌ أن هوامش «ترجمت» مفرداتِها إلى الفصحى!)، كانت بليغةً في تظهير كل شحنات التوتّر في كل الشخصيات، هُواريّة وأمها وأخيها هواري وزوجته هبة، وأخيها هاني، والشخصيات الأخرى، هاجر وهناء وهاشمي وهبة وهالة. ولافتٌ أن هذه الأسماء كلها تبدأ بحرف الهاء، والذي هو، في واحدٍ من شِحناته، مقترنٌ بالهواء، بأنفاس الذي يُطلق زفراته ويُخرج المكتوم في جوفه.

> رواية معنيّةٌ بتشخيص الأنوثة المحطّمة، المُتعبة بالخيبات، وبالفقد والخُسران، بالبحث عن طمأنينةٍ في العيش مفقودة

ليست أنعام بيّوض وحدها اختارت فضاء من القاع المهمش في المجتمعات العربية، لتؤثّث منه سرداً ومبنى روائيين، فمن هذا كثير في غير رواية عربية. أما أنها كتبت عملاً على قدرٍ بيّنٍ من الجرأة والشجاعة، فذلك مما يُستحقّ قولُه، فقد ذهبت إلى تلكم النساء، في حي فقير في وهران في الجزائر، وتضيء، بالروي والمحكي، على عالمٍ سفلي (التعبير مستهلك)، وأظنّها أحرزت توفيقاً ظاهراً في الذي صنعته، بما تبدت في الرواية من حرارةٍ صادقة، عن حق، تستشعرها أنت القارئ، وأنت تتعرف على كل شخصيات النص، وهي كثيرة، وتطوف بينها، ومعها، وتلقى بينها هبة، الشابّة المتعلمة والميسورة وابنة تاجر ثري، والتي تقود سيارتها، وتشتغل في بحث اجتماعي، وتحبّ هاني الذي يغادرها، بلا خبر منه، وقد كانا «حبيبيْن لم يخبر أيٌّ منهما مفردات العشق».... إنه الخسران في واحد من وجوه متعددة، لم يلتفت حرّاس الحياء العام، وهم يُحاربون روايةً طيبة الأثر في نفس من يقرؤها، واكترثوا بسطورٍ وقعتُ عليها بعسرٍ، ثم لم أرَ فيها بذاءةً كنتُ أود أن ألقاها.

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالا**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,50**, Austria **€ 2,50**, Belgium **€ 2,50**, France **€ 2,50**, Germany **€ 2,50**, Holland **€ 2,50**, Italy **€ 2,50**, Spain **€ 2,50**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 10,00**, USA **$ 2,00**